

جورج خباز... الحداثوي العبقري ومعري ويلات لبنان السياسية والاجتماعية

أحمد طي

أن تكتب عن جورج خباز، هذا يعني أنك تتال شرف الكتابة عن حداثوي نابغة، استطاع عبر عبقريته وصبره وجلده وطموحه ومثابرتة وإصراره لأبل نضاله، أن يخترق حائط الجمود، وينتشلنا من القوضي والعينية والخبوية المعششة فينا، ويمضي بالمرسح اللبناني خصوصاً، والفن عموماً، نحو مجد سيكتب التاريخ عنه عمّا قريب.

أن تكتب عن جورج خباز، هذا يعني أنه ينبغي عليك أن تكون صافي الذهن، مركزاً، لا لشيء، إنما فقط لتحيط بكل ما أبداعه، وأن تسترجع عبر ذاكرتك كل مشهد مسرحي أو درامي أو سينمائي آداء، كل قصيدة القاها، كل أغنية غناها، كل دمعة ذرفها، كل ضحكة، كل «صفحة»، هو الذي لم يترك «شاردة» تشر عن باله، ولا «واردة» تمر مرور الكرام أمام قلمه، فتجدده يعزّي الويلات السياسية والاجتماعية التي لما يزل لبنان يعاني منها، عله - أي جورج خباز - يستطيع عبر ما يقدمه من فن راقٍ قريب من القلب، أن يفتح كوة في جدار، شقاً في عباب الموج، أو يحدث تغييراً منشوداً في نفوسنا... نحن اللبنانيين.

بكل فقة بعيدة عن التملق والمجاملة، أسمح لنفسي أن أقول، إن جورج خباز، مجموعة من العبقرة في عبقري، قيمة لبنانية كبيرة، على اللبنانيين - مواطنين ومسؤولين - أن يتمسكوا بها ويدعموها. هو الذي - إلى جانب آخرين - استطاع أن يخلص المسرح اللبناني من برائن الإبتدال، بعدما اتجه هذا المسرح خلال فترات معينة، إلى مسرحية النكات لا سيما البذيئة، وإلى استعراض السيناق والهبل والصراخ والتشاز.

ابن البترون، وابن الأسرة الفنية (والده الممثل جورج خباز ووالدته الممثلة أوديت عطية)، ولد في 5 تشرين الثاني عام 1976، أي أنه ترعرع في لجة الصراع الدموي الذي خاضه اللبنانيون. رأى ما رآه من ويلات الحرب. رأى دماء ترهق، وإسراً تشرّد وقرى تغرق من قاطنيتها، فاخترت كل هذا الألم في جوانيته، ليشكل تربة خصبة لإبداعاته في ما بعد.

لا تندهي؟!

هو الشاعر والكاتب والموسيقي والملحن، والمخرج والممثل، وبكلمة واحدة، هو الفنان الشامل. عندما تسمعه يبتدأ أو يغني، لا يمكن إلا أن تنسجم، تضحك، تبكي، تتور، تغضب، وأحياناً - غصبا عنك - يقشع بدمك فتجد نفسك تصفق من دون أن تشعر. يقول في مسرحية «مش مختلفين» (2013):

ما نقيت وين خلقت
ولا نقيت وين علقت
ما نقيت إسمي شو
ولا طولي قديشو
ما نقيت شكلي كيف
عادي ناصح ولا ضعيف
ما نقيت أهلي مين
ولا المذهب ولا الدين
ما نقيت نحننا مين
ع شو دخلك مختلفين؟

ونقي في الأغاني والفصائد التي يصّر خباز أن يدرجها في مسرحياته، إذ تساهم جداً في إيصال أفكاره إلى الناس، ورسائله التي يريد بموجيها أن يضيء على أمور معينة ذات صلة بالقضية التي تعالجها المسرحية ككل.

يقول في مسرحية «هلق وقتا» (2007):

اسمعي يا رفيقي الشهيد يلى تركتنا بكير
نفس الغلطة عم بعيد واللى صار رجع بصير
رجعنا نمشي نفس الدرب وعم نفش ع ما شي
كانه كل سنين الحرب ما تعلمنا منها شي
تلاتين سنة من الدال يظهر ما بتقنيا
رجع الحلق قينا حل ورجعوا يلعبوا قينا
والشباب بعدا يتقل عم نسمع صوت القنابل
رجع الكل يسب الكل ونخلط الحابل بالنابل
ومشيت لغة التجريح والبلى ما شفيو جراحو
قولك رح تاخذنا الريح ما بيغني يلى راوحا
سبق وشرينا الكاس ويكينا عالمقابر
ما اشتقتنا ع خطوط العناس ولا اشتقتنا عالمعابر
قلهنا حاج يصحكو اناس اللي بيحكوا عالمناير
يا ريت فيك تزورهم يوم مش عم يسمعو مني!
فقيهم انت من دون ان تعلم ببلد بيتك الجنة
قلهنا يا بشر اوعوا تزجعو لهيك الايام

صار لازم نوعي بلدنا بيلبلقو السلام
ما حدا منا سئلان وع بلدو خايف
كل واحد فاتح دكان ليتاجر بالطوايف
يا عالم كل الأديان بتدي ليكون حنين
نحنا منكره الإنسان ومنطق الحجة بالدين
قلوينا صارت من حديد وما تعلمنا من الماضي
خايف يا رفيقي الشهيد... تكون رحت عالفاضي
بنتك صارت صبية وصار عمراً فوق العشرين
عم تسال وينو بيبي... وبيني استشهد كرمال مين
قتلتها بيك بدمه دفع حق الحرية
القضية كانت همّه واستشهد بالقضية
قالت أي حرية وشو بدي بالقضية

مبارح بالحلقة تخرجت وما كان بالحلقة بيبي
قلهنا يوعوا من جديد وما يرجعوا للماضي
حتى يا رفيقي الشهيد ما تكون رحت عالفاضي!

ويغني في مسرحية «ورا الباب» (2015):

شو بدنا نسمي البويوتو
شي اسم الكل يحنو
يليق لكل الظروف
ولا دولة فيها تسبو
الاسم الأجنبي بالشروق
تسكرو بوجو البواب
الاسم العربي بالعرب
على لائحة الإرهاب
يمكن ترجع تتسكرو المناطق عنّا
وترجع تنكي بمعلق منّا ومش منّا
شو بدي سفي يا ناس
شي اسم يضلوع ينغاز
ما يضرر بغير فيه
أو فجة يضلوع



أو فجة يكوّ!
وشجعتّه «حرقه القلب» في مسرحية «ناطرينو» على تحريف كلمات النشيد الوطني اللبناني فيقول:
كلنا ع الوطن
كل واحد عنو علم
كيف إلكن عن بهازن من
تعيشوا الناس بالآلم
بعنا السهل والجبل
وعم نفش ع الرجال
والشباب بلا عمل
بتهاجر تجيب المال
كلنا بزّا الوطن
والسرقات بالاعلان
حرقت سألوف الوطن!

دراما وسينما

غزير الإنتاج في شتى المجالات، بدءاً من مشاركاته في الأعمال الدرامية والتلفزيونية، نذكر منها: مسلسل عرض على قناة «ديزني» عام 1994، إلى «شباب وبنات» (1995)، و«اصابع من ذهب» (1996)، و«بسمات وطن» (من 1997 إلى 2001)، «نساء في العاصفة» (1997)، «طالبيين القرب» (1998)، «سنايل الحب» (1999)، «جميل وجميلة» (2001)، «عبدو وعبدو» (2003 و2004)، «ساعة بالاذاعة» (2005)، «فادي وراضي» (2006)، إلى «يارا» (2010)، و«القناع» (2012).

وفي السينما، نجد خباز يعالج مآسي الحرب في «وين» (2014) و«تحت القصف» (2007)، كما يعالج نظرة المجتمع إلى ذوي الاحتياجات الإضافية في «غدي» (2013)، ويساهم مع نجوم كبار من سورية ولبنان في إعادة مسرحية «سليمان» سينمائياً (2009).

المسرح... المنبر الأحب

أما في المسرح، فإن تجد من يبدع كل سنة تقريبا مسرحية ناجحة، فهذا أمر عجز عنه عمالقة سابقون، ونشك في أن يستطيع أحد ذلك مستقبلا.
قد يقول أحدهم: «النوعية أفضل بكثير من الكمية». وأن تنتج مسرحية تشاهد لسنوات، خير من أن تخرج بمسرحية كل سنة... كلام قد يكون سليماً.
وقد يقول آخر: إن الغزارة تولد التكرار... كلام قد يكون سليماً أيضاً. ولكن جورج خباز كسر - بحق - تلك القواعد كلها. فهو الذي نجح في إنتاج الكم النوعي، وهو الذي لم يسقط قط في فخ التكرار إلاطوعاً وعن قصد، حين تتطلب الرسالة الأسمى ذلك.

أما نحن فنقول، إن ما أنتجه هذا العبقري خلال أكثر من عشر سنوات بقليل، لا يمكن أن يُنسى. بمعنى أن مسرحيات جورج خباز كلها، تصلح لأن تكون جاهزة في أي مكتبة منزلية. وقد يجد كثيرون مبالغة في ما سأقول، إنني أشاهد مسرحيات جورج خباز كل ليلة، من دون أن يتسأل إلي أي شعور بالملل أو السأم. كلما تشاهد مسرحية ما، تشكك إليها، وتجد تفصيلاً صغيراً لم تنتبه إليه سابقاً وتحاسب نفسك على كل خطأ نبتك إليه. فيكون جورج خباز يقنه، تلك القوة المسداة... ضميراً! فمعه، تصمّم على أن تكون الإنسان المواطن الذي في داخلك، والذي يبتئخ خباز إلى وجوده، كي تحزره من كل القيود التي تكبله وتمنعه من بناء وطن جميل قوي حر، بسوده الحب، ويليق بنا وبالشمس التي تشرق عليه.

يدعوك خباز عبر مسرحياته إلى التحزب من الطائفية والمذهبية والمناطقية والقطاعية والطبقية والفساد والتحزب الأعمى اللامعدي، والتبعية والخذلان والضعف والهوان والجهل والهبل والكذب والرياء... يدعوك لأن تكون وطنياً محباً صادقاً نظيفاً وحديواً مؤمناً لا متعصباً. يدعوك لأن تتخلص من لوثات زرعتها الحرب فيك، لتمضي مع أخوتك في الوطن، إلى بناء هذا الوطن. إن جورج خباز عبر ما يدعوك إليه في مسرحياته، كل مسرحياته، يذكري بفيلسوف ومفكر من بلادي، اغتيل استشهد كرمي لهذه القيم، هو الذي قال ذات يوم: «إن اقتتلنا على السماء أفقدنا الأرض!»

قد لا تتسع الصفحة هنا لن نقد كل مسرحية من مسرحيات جورج خباز، بدءاً من مشاركته في مسرحية «غادة الكاميليا» لجيزيل هاشم زرد (1996)، وإخراجه مسرحيته الأولى «هاملت في ورطة» (1997)، إلى «طلق» RIRE (1998)، لتكرّر سبحة إخراج المسرحيات سنوياً مع «مصيبة جديدة» (2005)، و«كتاب كبير» (2006)، و«هلق وقتا» (2007)، و«شو القضية» (2008)، و«ع الطريق» (2009)، و«البروفسور» (2010)، و«مطلوب» (2011)، و«الأول بالصف» (2012)، و«مش مختلفين» (2013)، و«ناطرينو» (2014)، و«ورا الباب» (2015).

أما مسرحيته الجديدة فهي بعنوان «مع الوقت... يمكن»، والتي يؤدي فيها شخصية «باخوس»، كاتب الأفلام الفاشل وغير القادر على بيع نصوصه، فيحاول الانتقام من ماضيه الأسري. ما زالت المسرحية تعرض على خشبة «شاتو ترياو»، من الأربعاء إلى الأحد، وهي من بطولته إلى جانب شقيقته لورا، وجوزف أصاف، غسان عطية، مي سخاب، ناتاشا شوقاني، وسيم التوم، جوزف سلامة، عمر ميقاتي وطرس فرح. إضافة إلى فرقة استعراضية.

شهادات

وإذا كان الممثل القدير دريد لحام قد رشّح جورج خباز ذات يوم لتجسيد شخصيته في حال أنتج فيلم أو عمل درامي عن حياته، فإن نجوماً لبنانيين كثيرين اعترضوا عن إيداء الراي بخباز، لا لشيء، بل لأنهم أجمعوا على أن شهاداتهم بجورج خباز «مجروحة»، فهو المبدع الذي عرف كيف يخط طريقه نحو التائق.

الآن الممثلة ندى بو فرحات، ودّت أن تصف خباز بالعصامي الجميل، وقالت في حديث مقتضب إلى «البناء»: جورج خباز صنع نفسه بنفسه، فهو اختار خطه منذ البداية، وطور نفسه وقنه، من خلال قراءاته وإبحاثه. لقد استطاع جورج خباز أن يبني عالمه المسرحي السينمائي الخاص، في وقت كانت أزمّة السينما والمسرح في لبنان في أوجها. لجورج خباز العصامي الجميل كل الاحترام والحب، ولشغفه وإيمانه بموهبته كل التقدير.

كلمة أخيرة

ختاماً، يبقى أن نقول إن لبنان، كما العالم العربي، قلماً ينتجب مبدعين أمثال جورج خباز، هو الذي يدرك جيداً أنه لا يغرد خارج سرب المسرح الأصيل، بل هو يبني مداميكه من جديد، لتعود إلى لبنان صورته الناصعة.
لجورج خباز، الذي ردّ ذات صباح على الهاتف بصوت يغالبه التعب والنعاس بعد ليل طويل من الوقوف على خشبة المسرح، والذي سارع بعد فترة وجيزة إلى معاودة الاتصال للاعتذار عن طريقة رده، لهذا الإنسان الراقى بأخلاقه رقيه بفنه، كل الحب، وله نردّد مع الفيلسوف والمفكر الذي استعزنا منه ماثورة في متن هذا المقال، ونقول: «كلما بلغتم فمة، تراءت لكم قمم أخرى أنتم جديرون ببلوغها». جورج خباز... القمم تليق بكم!